أو يظله بجناحه ، فيرفع من قدره بمديحه ويصوره فى احترام وحب وخوف وفخامة ؛ ويجعله فوق الناس وأعلى الملوك . وبذلك يختلف عن زملائه الجاهليين كامرئ القيس والمهلهل وغيرهما حين قالوا المديح عن حبّ عميق وشعور صادق واعتراف بالواقع ، فلم يتملقوا ولم يتزلفوا لأنهم لم يتكسبوا بشعرهم ولم يحترفوا بمديحهم . وقد لاحظ المستشرقون أنه خلق فى الأدب العربى ما يسمى بأدب الملوك أو الشعر الأرستقراطى ، لأنه يحيط الملوك وحدهم بالدعاية والرعاية ، وينسى الشعب وعامة الناس من الذكر والعناية ، فلا يعيرهم مكاناً من المديح ولا يلفت النظر إلى أعمالهم ، فكأن الدنيا تعيش لهم وبهم ؛ أو كأنهم يملكون كل شىء فى الأمة لا يذكر إلى جانبهم أحد ، وهم السادة وغيرهم العبيد ؛ ويبدو أن هذه النظرة قد تبدلت قليلا خلال عصورنا الأدبية ، فاتخذ الشعراء من رعاية الخلفاء والملوك لشعوبهم وقبائلهم موضعاً للمديح والإطراء ، أو خيل إليهم أن ذلك قد وقع فاستحقوا المديح .

والأعشى سار على سنن النابغة فى المديح ، ولكنه انحط إلى درك المسألة والتكسب المشين ، فمدح كل من أعطى ، وشكر كل من أكرم ؛ فقال يمدح الأسود بن المنذر اللخمى ، وهو من إخوة النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فرأى فيه الحزم والحذر وصلة الرحم والشجاعة والقوة فقال فيه :

عِنْدَهُ الحزمُ والتّقى وأسا الصَّر ... ع ، وحملٌ لمضلع الأَثْقَالِ[1]

وصلاتُ الأَرحام قد علم النا ... س وفك الأَسرى من الأَغلالِ

وهوانُ النَّفْس العزيزة للذكـ ... ـر إذا ما التقَتْ صدور العوالى

وعطاءٌ إذا سألت إذا العذ ... رة كانت عطيّة البخّالِ[2]

(١) التقى : الحذر — أسا الجرح : داواه — الصرع : داء يبطل الحس ويمنع الحركة ، وهو التيه والكبر .

(٢) العذرة : المعذرة .